سمات الدراما القرآنية

لم أجد فيما وقعت عليه يدى من المصادر وفهارس المكتبات بحثاً متخصصاً يتناول الدراما فى القرآن الكريم بالدراسة، سوى ما وجدته فى مقالة بعنوان : «رحيق العمر.. مجاناً» بقلم : أحمد صبحى منصور ذكر فيها أن له إنتاجاً علمياً لم ينشر بعنوان : «الفن الدرامى فى القصص القرآنى».

ويقول : على الرغم من أن التقصى الذى قمت به كان استقراءً واسعاً وقعت من خلاله على عشرات الدراسات التى تبحث فى الدراما، وما يحيط بها، وأثرها فى التربية والاتصال واللغة، وغير ذلك.

كما وقعت على خبر فى جريدة الرأى العام السودانية الصادرة فى 12/ 4/ 2002م يذكر أن ندوة بعنوان «الدراما فى القرآن» استضافها مركز البريز الثقافى، وهى إحدى فعاليات مهرجان «روائع القرن فى الدراما». ولم يتسن لى الوقوف على تفصيلات هذه الندوة.

ولو رجعنا إلى تعريف الدراما السابق بأنها «فن تمثيلى يعنى بتصوير للفعل الإنسانى وما يرتبط به»، وأن عبارة «الفعل الإنسانى» (تشتمل على المشاعر والأفكار والأفعال جميعاً)، فسنجد أن فن الدراما يقوم على أسلوب الحكي المرئي، وهو التعبير بالصورة المتخيلة.

وأما مجال الدراما وهو الفعل الإنسانى، فيدخل فى مجال التصوير، لأن مجال هذا الأخير يتسع ليشمل المعانى الذهنية، والأفكار المجردة، زيادة على الفعل الإنسانى، ولكن لابد من البيان بأنه يشترط فى الدراما أن تعرض الفعل الإنسانى فى

سياق القصة على نحو قابل للتمثيل، وهو ما يشرحه السيناريو ويفسره الحوار.

أما عن أثر الدراما فإننا نجد أنه أضيق من التصوير، إذ يتناول التصوير اللوحة، والمشهد، والحركة الحية المتشخصة. وهذه الأمور الثلاثة متدرجة من حيث القيمة الفنية، إذ يراد باللوحة ما يشكله التعبير الفنى فى نفس المتلقى من معنى كأنه صورة بديعة تشده بألوانها، إلا أنها لاتزال صورة.

بينما يراد بالمشهد الصورة المركبة، أو جملة الصور التى تشكل معانى أوسع من سابقتها، إلا أنها ثابتة لا تتحرك.

أما الحركة فهى المشاهد والصور الفنية المتعاقبة التى تتفاعل مع الزمن وتتغير مع حركته. فالأولى كالتصوير الفوتوغرافى لمفردة واحدة، والثانية كالتصوير الفوتوغرافى لأكثر من مفردة، وأما الثالثة فهى كالتصوير السينمائى أو التليفزيونى.

ولو رجعنا إلى الدراما لوجدنا أنها لا تشمل سوى الأثر الأخير، وهو الحركة الحية المتشخصة، وبعبارة أدق الإيقاع الحركى المتشخص، وهذا الأثر صورة مهمة من صور التعبير الفنى وبه تدخل الدراما فى مجال الفن أكثر من انتمائها إلى مجال الأدب.

من هذه المقارنة يمكن أن نستخلص أن الدراما فى النص القرآنى إنتاج فنى مستقل، وهو مباين للتصوير الفنى فى القرآن الكريم، وإن كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً.

ولا يحتاج الباحث كبير عناء للوصول إلى الدراما فى القرآن الكريم، فحين نسلط الضوء على بعض المشاهد القرآنية ونعرضها على أحكام فن الدراما نرى ضيق المسافة الشديد بين هذه المشاهد والدراما، إلى درجة أن يتبادر إلى الذهن أنهما مفهوم واحد، ولاسيما إذا كانت المشاهد حوارية.

وفي ذلك قال د.محيى الدين عبدالحليم، أستاذ الدراسات الإعلامية فى جامعة الأزهر – فى لقاء أجرته معه مجلة الوعى الإسلامى الكويتية، حول الإعلام الدينى

بين الثوابت وتطورات العصر - : (ليكن كتاب الله الكريم لنا خير معلم، انظر إلى «الدراما» وهى التسمية المتعارف عليها بلغة الإعلام المرئى والمسموع، انظر إليها فى القرآن الكريم، تجد لها بصمة واضحة فى قصة يوسف، وقصة أيوب، وقصة خليل الله إبراهيم عليهم جميعا السلام، انظر إلى «الدراما»القرآنية فى قصة أهل الكهف، لقد عرضها الله تعالى عرضاً محكماً على نبيه الكريم).

فقد عرض القرآن الكريم بعض مشاهده القصصية عرضاً دراميا، راعى فيه خصائص الدراما البنائية من التمهيد الدرامى، والذروة الدرامية، وخصائصها الأسلوبية كالتشويق والخطف خلفا (فلاش باك) وغير ذلك، فضلا عن المعهود من خصائص البيان القرآنى الأخاذ.

فنجد مثال ذلك فى قوله تعالى فى سورة القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: 7-13].

يمثل هذا المقطع نصاً دراميا متكاملاً، تتحول فيه الكلمة إلى لقطة، والجملة إلى مشهد، فحين يسمع القارئ الآيات تسبح مخيلته فى زوايا المشاهد، وتحاكى معانى النص بحاسة البصر، وكأن المرء يرى مشاهد مصورة، بينما يقوم السمع عادة بإدراك معانى النصوص القصصية الأخرى.

يبدأ العرض الدرامى بالتعريف بالشخصيات، من حيث أفعالهم ومراكزهم الاجتماعية ونحو ذلك كى يدخل السامع فى الحكاية الدرامية على نحو يؤهله

للتفاعل مع أحداثها، ويتشكل بذلك منطلق الدراما. ثم تبدأ «نقطة الهجوم» بالحديث عن وحى الله جل جلاله لأم موسى عليه السلام ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

وفى أول النص يجد السامع صعوبة فى فهم ما تقوم به أم موسى التى تسكن على إحدى ضفاف نهر النيل، فقد فتحت فى جدار بيتها نقباً وألقت ولدها من خلاله فى اليم، بعد أن وضعته فى صندوق خشبى مربوط بحبل، وربطت طرفه الآخر بجدار البيت الخارجى. ولكن السامع سرعان ما يدرك السبب إذا رجع إلى مستفتح السورة، حيث قوله تعالى : ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ ﴾. فالمرأة تحفى ولدها خوفا من الملك الذى يقتل المواليد الذكور، وجنده الذين يفتشون بيوت بنى إسرائيل، فبداية السورة تمثل التمهيد الدرامى، على الرغم من كون سبكها القصصى قائماً على أسلوب الراوى البعيد من حيث الظاهر عن الدراما، لأنه غالبا ما تعتمد الدراما على الحوار لا الراوى.

وذات يوم فاجأها الجند داهمين البيت فألقت صندوق الرضيع من غير أن تربطه بالحبل!! وهنا تبدأ الأحداث بالتأزم والتوتر حين يسير التابوت مع مسار النهر، حتى يدخل مياه قصر الطاغية فرعون وتلتقطه حاشيته، وهنا أيضا تحتبس أنفاس السامع، وتزداد نبضات قلبه عدداً وتسارعاً، وهذا الحدث تحديداً هو ما يمثل الذروة الدرامية. ويتجسد فى قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ، إذ تتجمع هنا عناصر التوتر كلها، المرأة تجازف فى كل مرة بولدها فتقذفه فى التابوت، وتقذف التابوت فى اليم استجابة للإلهام الإلهى، ثم ينتهى الأمر بأن يقع الوليد فى حجر قاتل الأطفال!! وتقوم أحداث الذروة على المفارقة الدرامية، فقد استجمعت أقصى ما يمكن أن يعد من باب سوء التفاهم، فالحوار

الصادق سيؤدى إلى قتل الصبى، فضلا عن إلحاق الأذى بأمه، وربما بأهله جميعاً، لأن منطق الطغيان يقوم على استعباد الآخر واستباحة خصوصيته. وفيما وصلت إليه الأم الثكلى من حال يكمن التحدى الإيمانى، والصراع ما بين تصديق وعد الله والواقع المؤلم، وبعبر البيان القرآنى بقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وفى هذه اللحظة يتكثف التشويق، ويبلغ الجذب غايته، ويأسر المشهد متابعيه فى الاستمرار فى إكمال إحداثه حتى النهاية.

ثم تبدأ الذروة بالانحلال رويداً رويداً، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، فها هو الصبى ينجو من القتل، بل ها هو ذا يعيش ولدا مدللاً فى أكثر الأماكن أمنا فى مصر، فى قصر فرعون قاتل أبناء بنى إسرائيل.

وفى زحمة هذه الأحداث ينزلق حدث مفصلى يتمم حل الذروة الدرامية، فتنفرج الأمور حين يرفض الصبى – المحبوب من زوجة فرعون وأهل القصر – الرضاع إلا من أمه، ويعلن البيان الإلهى نهاية التوتر بقوله : ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

والبديع أن البيان الإلهى لم يقفل الحديث عند مشاهد الطفولة الأولي لموسى عليه السلام إلا بعد أن قدم تمهيدا دراماياً جديداً للأحداث اللاحقة. فقوله تعالى : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ يمهد لجملة مشاهد من الصراع تحملها الآيات التالية من السورة.

ونجد من خلال هذا المثال قوة الحبكة الدرامية وترابطها وتسلسلها الرشيق إذ لا يحتاج السامع إلى كبير عناء ليدرك انسجامها إلى درجة أن يكون هو أحد أبطال الواقعة، فمرة يتصور نفسه الأم بشفقتها الشديدة، وذوبانها فى حماية ولدها، وإيمانها الراسخ. ومرة يجد نفسه الأخت الباكية التى تتابع التابوت على ضفاف النهر،

ويحيى فى ثنايا ذلك كله الحالة النفسية لأبطال القصة، بأبعادها الإنسانية والإجرامية على السواء، لأن النص القرآنى قد اتخذ من التصوير الفنى أسلوباً للعرض الدرامى، لما يقوم به التصوير من تحويل الكلمة إلى لوحة، وكأن القلم فى يد الكاتب ريشة فى يد فنان تغترف الألوان من مخيلته، حتى تجردت كلماته من قسوة القلم الذى ينحت المعنى من معجم الكاتب.

فهذه الدراما القرآنية وأمثالها لا تنقل الحدث إلى السامع، كالقصة أو الرواية، بل تنقل السامع نفسه إلى قلب الأحداث، وكأنه قد أسهم فى صنع الحدث. وهذا كله يدلل على التماسك الدرامى الشديد فى هذه النصوص.

وهكذا فقد عرض لنا القرآن الكريم فى هذا النص دراما متميزة، قد استجمعت من خصائص البناء الدرامى أتمه، وبرزت فيها أجزاء العمل الفنى المبدع، واتسمت باللغة الحوارية الرشيقة، وانتقلت بالحدث من عمق زمانه ووضعته بين يدى السامع كأنه يقع أمام ناظريه، بل كأنه إحدى شخصياته، ومن أجل هذا كله فإنها لا تصلح أن تكون مثالاً تدريسياً نموذجياً للدراما المتميزة.

ومما ينبغى التنويه اليه أنه على الرغم من اجتماع أعلى عناصر النجاح فى هذه الدراما لم يخرج النص عن صدقه فى محتوى الدراما، ولا فى حبكته الدرامية، فلم يسلك مسلك توسيع الأحداث والتفاصيل، أو ابتكار شخصيات وأحداث جديدة، أو توسيع محل القصة الدرامية التى يعبر عنها زمانياً أو مكانياً، بل اتخذت طريقاً أخرى محافظة على صدق الأحداث، فوسع مخيلة السامع، وفسح أمامها آفاق التصور، مستعملاً طرائق التصوير الفنى المتعددة، فوجد السامع نفسه فى ساحة الأحداث، يستجيب لما يمليه كل حدث من انفعال نفسى، فتتلون قسمات وجهه، وحركات جسده حسبما يفرض الحدث ويتطلب الموقف.

فقد استطاع البيان القرآنى ببراعة أن يحول القصص التاريخية التى عفا عليها الزمان، وقضى أصحابها منذ قرون متطاولة، إلى دراما فنية، فاستطاع أن ينبش أشخاصهم، وليس أحداثهم فحسب، وكأنك تجالسهم وتصافحهم وتواكلهم

وتشاربهم. فإن كانت القصة التاريخية تحيى الأحداث، فإن الدراما القرآنية تحيى الأشخاص والأحداث معاً، فكأنك تعيش مع أبطال القصة.. مع تدرج الأحداث بل وتدرج أزمانهم :

فأنت ترى موسى فى مهده، بل تراه قبل أن يولد، من خلال التمهيد الذى تقدمه القصة لما سيحدث فيكون لك تصور لما سيأتى..

ثم تراه بعد ذلك رضيعاً..

ثم تراه فى التابوت..

ثم تراه فتى فى قصر فرعون..

ثم تعيش معه بعد ذلك فى محنته..

ثم تراه فى أهل مدين وهو يخطب الفتاة على ماء مدين..

ثم تراه بعد ذلك رسولاً نبياً..

ثم ترى السحرة وهم يسجدون معه لله رب العالمين..

فقد عاش موسى من جديد مع الدراما القرآنية، فلم تكن مجرد أحداث من حياة موسى استرجعها النص القرآنى على الطريقة التاريخية أو القصصية.

هكذا تفعل الدراما القرآنية فى المشهد، تحول الصمت كله إلى الضجيج، والسكون إلى حركة، والأبيض والأسود، تحولهما إلى ألوان زاهية تسر الناظرين، وتبعث فى قلوبهم أنواعاً كثيرة من الحياة.. لم يكن القرآن فى قصته مجرد سارد أو قاص، إنما تصرف بالدراما كأنه مصور يأخذ السامع إلى الحدث، وليس يأخذ الحدث إليه، فإننا نعلم أن المخبر ينقل الحدث إلى السامع، ولا نعلم أنه يمكن للقاص أن يدخل فى جوف الحدث فيأخذ معه السامعين، ولا نرى هذا إلا فى دراما القرآن الكريم.

ومن الواجب هنا أن نوضح بالمفهوم الفني أن الدراما هي القصة أو الصورة التي تقوم على صراع بين قوتين متناقضتين .. الوسيلة .. في ذلك الحدث والشخصية وكل هذا يجري في إطار القصة أو الفكرة التي تقدمها سينمائيًا أو تليفزيونيًا أو إذاعيًا أو مسرحيًا نفس الفكرة أو القصة تستطيع تقديمها بهذه المحاور التي تختلف في نوعيتها وزمن تقديمها لكنها تتفق في اعتمادها على حدث أو شخصية .. فقد نتكلم عن جريمة قتل .. باعتبارها حدثًا .. وقد ننطلق من شخصية القاتل في نفس الجريمة وهذا ما يفرضه أسلوب كل كاتب . وطريقته في التناول والسرد من أجل هذا كان العنوان الأنسب للكتاب (السيناريو والحوار في القرآن الكريم) لأن الدراما قد نجدها أيضًا في القصة المكتوبة والرواية الأدبية .